لسانُ حِميَر ولسانُنا وعربيّتُهم وعربيّتُنا قراءة في الأسئلة المُغيَّبة

أ.م.د. مهدي حارث مالك الغانمي
جامعة القادسية – كلية التربية

الملخص :

على الرغم من شهرة قول أبي عمرو بن العلاء عن الاختلاف بين لسان حمير ولساننا وعربيتهم وعربيتنا ، ورسوخها بوصفها مصداق حقيقة لغوية ؛ وعلى الرغم مما بني عليها من رؤى وأفكار ؛ ما زال بها حاجة ماسّة إلى إعادة القراءة في ضوء تدافعها الجليّ مع وقائع لغوية وتاريخية تجعل من مقولة أبي عمرو والحكم الناشئ عنها مثار أسئلة مغيبة أو مسكوت عنها أكثر من كونها تقرير حقيقة لغوية أو وصف حال لسانية تجيب على سؤالها المعرفي عن اختلاف اللسانين والعربيتين .

ومدار هذا البحث السعي إلى إعادة قراءة هذه المقولة وما تضمنه في ضوء المعطى القرآني ومعطيات لغوية وتاريخية متعالقة معه قد تسهم في تجلية حقيقة قول أبي عمرو ومدى انطباقه على الواقع اللغوي المزعوم اختلافه بين مكوني الجزيرة العربية الرئيسين. وقد تجلت للبحث أدلة تجعل من حكم أبي عمرو ليس على إطلاقه وأنه ليس بالمسلمة اللغوية كما تلقاها قدماؤنا ومحدثونا في الدرس اللغوي والأدبي ، لا في عصر قائلها ولا قبله ولا بعده ، وإنما هي حال مخصوصة لقرية أو قريتين من اليمن ، لا يمكن في ضوء الواقع اللغوي والتاريخي تعميم غتمتهما اللسانية على بلاد بأكملها كان لسانها على غير ما وصف به في تلك المقولة .

ليس ثمة أشهر ، في تراثنا اللغوي ، من كلمة أبي عمرو بن العلاء في أمر اختلاف لساننا عن لسان حمير وأقاصي اليمن ، واختلاف عربيتنا عن عربيتهم . والنصّ الشائع ، الذي أورده السيوطي في المزهر ، لهذه الكلمة يخلو من التحديد الزمني لهذا الاختلاف ؛ وعلى وفقه بنى الدكتور طه حسين [١] ، وربما من سبقه ومن لحقه موافقاً ، نفيهم كثيراً من الشعر الجاهلي ، وقولهم بنحله .

والنصّ المحقّق ، على يد الشيخ محمود محمد شاكر ، من طبقات فحول الشعراء ، يورد لفظةً في كلمة أبي عمرو ، غاية في الأهمية ؛ ولنا أن نطمئن كلّ الاطمئنان إلى دقة المحقق ، فاللفظة في نسخه موجودة ، وإن كنّا لا ندري : أهي من أصل كلمة أبي عمرو أم أنها إضافة متأخرة إلى كلمته ، أم هي وهم من ناسخ من نسّاخ الكتاب ؟. واللفظة المزيدة هي (اليوم) ، فالفرق بين روايتي النصّ هو في هذه اللفظة المنصوصة في الرواية التي رضيها الشيخ شاكر : ((ما لسان حمير وأقاصي اليمن **اليوم** بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا))[٢] ، والتي خلت منها الرواية الأخرى : ((ما لسان حمير وأقاصي اليمن لساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا))[٣] .

وليس التزمين ، الذي تشتمل عليه الرواية المعتمدة في الطبعة المحققة من طبقات فحول الشعراء ، هو المشكل الوحيد في كلمة أبي عمرو ؛ ولكنه يفتح الباب على الظنّ أن صورة اختلاف اللسانين والعربيتين إنما كانت في زمن بعينه ، لا مطلقاً[٤] . وهذا الاختلاف في زمن بعينه يتضمن إمكانية عدم الاختلاف في زمن آخر ، قبل اليوم الذي عناه أبو عمرو أو بعده .

والمشكل الآخر الذي تثيره كلمة أبي عمرو هو في ذلك التفريق بين اللسان والعربية بوصفهما مصطلحين مختلفين وليسا مترادفين ؛ وفي ذلك الفصل بيننا وبينهم تحت مسمى (اللسان) ، والجمع بيننا وبينهم تحت مسمى (العربية) . فما مراده من لسان حمير وأقاصي اليمن ، وما مراده من لساننا ؟ وما عربيتهم وما عربيتنا ؟ .

إن القول إن لسانهم ليس بلساننا ، يؤسس لمطلق الاختلاف (بحسب تعريف المعجم العربي للسان على أنه اللغة [٥]) ؛ فلا يعود معه للقول : إن عربيتهم ليست بعربيتنا ، من معنى !. ولكن عربيتهم وعربيتنا تؤسسان للجمع تحت ظلّ واحد هو (عربية) . وهذا التدافع بين مكوني كلمة أبي عمرو يثير سؤالاً عن مراده ؛ ويمنع الاكتفاء المتعجل بحمل اللفظين على الترادف . وليس أبو عمرو بالعارف ما

فعله المستشرقون بعد قرون كثيرة من أمر تقسيم الفصائل اللغوية لتكون لنا على وفقه عربية جنوبية وعربية شمالية ؛ لنظن أن الجمع بينهما ، عند أبي عمرو ، تحت اسم العربية سائغ مقبول ؛ ولا هو بالعادِّ لسان حمير وأقاصي اليمن لهجة من اللهجات ، بل لسان قائم برأسه . ولم يكن القدماء يعدون لغة قبيلةٍ أو لهجة قومٍ لساناً ، بل هي فرع من لسان .

قد يكون المراد باللسان هنا ما فهمه القدماء من مصطلح اللسان في القرآن الكريم ، وإن صح هذا فنحن أمام إشارة إلى اختلاف لسانين . وقد يكون مراد أبي عمرو من العربية قواعد التركيب صرفاً ونحواً ، فهذا المصطلح كان في زمن أبي عمرو يعني علم القواعد أكثر مما يعني اسم لسان أو لغة لقوم هم العرب[٦] . ولعل ما عرض له الدارسون في عصر الاستشراق يؤكد ما ذهب إليه أبو عمرو ؛ فللعربية المسماة بالجنوبية اختلافها الشاسع ، في ظاهر النظر ، عن عربيتنا ؛ ولها كما يقولون بنيتها الصرفية والتركيبية والدلالية المختلفة .

ولقد يبدو الحديث عن هذا الأمر مكروراً لولا لحظة تاريخية توجب التنقير فيه : دخول اليمن في الإسلام . فعلى الرغم من قوائم الألفاظ المختلفة بين لسان حمير وأقاصي اليمن والألفاظ العربية [٧]، وعلى الرغم من الأخبار والحكايات عن اختلاف اللسانين حد التباس الفهم المفضي إلى الموت أحياناً[٨] ، كان إسلام أهل اليمن خالياً من المشكل اللغوي !!. فلم يردنا خبر عن استغراب أهل اليمن ، جزءاً أو كلاً ، لكلام من أُرسل إليهم ، وهم من قريش ومن الأنصار ، ليعلمهم الدين ؛ ولا وردنا خبر عن عدم فهمهم مفردات القرآن الكريم أو تراكيبه أو دلالاته ومعانيه ، ولا خبر عن أزمة لسانية تحوج إلى ترجمان بينهم وبين من أُرسلوا إليهم ، وهم ممن يصدق عليهم قول أبي عمرو ؛ فما لسانهم بلسان أهل اليمن وما عربيتهم بعربيتهم .

وأمر إسلام اليمن بهذه الطريقة السلسة اليسيرة يفاجئ الناظر في أكثر من باب : أرث أهل اليمن الحضاري ، وإرثهم العصبي ، وإرثهم الديني .

فأما إرثهم الحضاري فلا مماراة في أن اليمن شهدت حضارات متمايزة لم يعرف مكان آخر في الجزيرة لها مثيلاً . وهي حضارات مدنية في معظمها أنتجت نظم إدارة وتراثاً مادياً وفكرياً مختلفاً عما هو معروف في وسط الجزيرة وشمالها[٩] . ولا مماراة أيضاً في أن أي نظام حضري يصل في تعقده إلى مرتبة

الدولة ويتجاوز الحالة القبلية يعني ضمناً تأسيساً لنظم معقدة في الإدارة والسياسة ، ويستلزم إطاراً لغوياً مُتفكَّراً فيه يتعالى عن الممارسة الفطرية للغة . ولعل التدوين والمسند والتاريخ ووظائف الدولة وأنماط الكتابة الديوانية التي تشي بها بقايا النقوش اليمنية ، على قلّة ما وُجِدَ منها ، تؤكد هذا الأمر ؛ وتعني أننا أمام بنية مختلفة تماماً عن البنية الشمالية التي عرفتها القبائل والقرى في الجزيرة قبل الإسلام .

وأما الإرث العصبي فعائد إلى اعتقاد أهل اليمن قديماً وحديثاً أن أصلهم غير أصل بقية سكان الجزيرة ، فهم قحطانيون : من بقي منهم في اليمن بعد سيل العرم أو من هاجر منها ، وأهل الشمال والوسط عدنانيون ؛ وليس من أحد في الجزيرة يخرج من هذين الجذمين ، والأهم أنهم يرون أن ليس بين الجذمين من صلة نسب أو قرابة [١٠]. وفي ظلّ هذه الثنائية العرقية ، مقرونة بالاختلاف الحضاري الذي أشرنا إليه سالفاً ، ليس من سبيل إلى إلغاء اعتداد كلّ قبيل بنفسه ، والدعوى أنه خير من صاحبه . ولعل النظر المتأمل في أمر العصبية اليمانية والعدنانية ، التي اشتعلت في عهد بني أمية واستمرت في ما تلاه ، يُنبئ أن القضية من موروثات الجاهلية وليست من مستحدثات الإسلام .

وأما الإرث الديني فله شأن عجيب في اليمن ؛ فإلى جانب أنها الجزء الوحيد في الجزيرة الذي عرف ما يمكن أن يُسمى بـ(دين الدولة الرسمي) قبل الإسلام [١١]، يُفاجأ الناظر في أمرها بأن نقوشها المقروءة تشي بالوثنية[١٢] ، وتاريخها يعلن أنها كانت يهودية ، ثم صارت مسيحية[١٣] ، ثمّ غزاها الفرس ، وهم أهل دين أيضاً ، ثم عادت إلى وثنيتها قبل الإسلام بعقود قليلة ، ثم أسلمت همدان كلها في يوم واحد وتبعها بقية اليمن في مدة قصيرة [١٤] ، ثمّ ارتدت طائفة من اليمن عن الإسلام في حياة الرسول بقيادة الأسود العنسي ، سابقة غيرها من أماكن الجزيرة التي ارتدت بعد وفاة الرسول[١٥] .

إن ما سبقت الإشارة الموجزة إليه في أمر إرث اليمن يصحّ مقدمة للسؤال عن إسلام اليمن : كيف لأمة تلك حالها أن تسلم بهذا اليسر والتسليم والسرعة متجاهلة اختلافها الجذري عن بيئة الإسلام عرقاً وحضارة ودِيناً ؟.

فلنسجل بدءاً أن البيئة الكتابية ، أياً ما يكن أمر كتابيتها ، تخلق صعوبات شتى في وجه كلّ جديد يناقض كتابيتها ؛ وتجعل من تقبّله مهمةً فيها الكثير من الصعوبة والتداخل . والسبب في هذا أن النمط الكتابي : سماوياً كان أم وضعياً ، يتحول في مراحله المتقدمة إلى بنية مؤسسية فيها تداخل ظاهر وخفيّ

بين مصالح وبنى شتى : السياسي والديني والاجتماعي والاقتصادي ، ما يجعل منها مسورة ومحصنة إلى حدّ كبير ضد أي خطر يتهددها ، أو يخلخلها كينونتها المؤسسية . الدين الكتابي ، بتداخله المؤسسي مع السلطة ، يتحول إلى سلطة متناهية ترفض وتقاوم كلّ تهديد ، لاسيما الآتي من بيئة أخرى تظنها أقل منها في كلّ شيء . وليس صعباً الجزم أن المؤسسة في البنى السلطوية هي التي تقود مقاومة التغيير أو التجديد أو التبديل ؛ ولنا في ما ذكره القرآن الكريم عن الصراع اليهودي الإسلامي ، والصراع المسيحي الإسلامي ، وفي مقاومة بلاد فارس للإسلام طوال ثلاثين عاماً من القتال ، دليلٌ له مشابِهُ في غير مكان .

ولقد ورد في حديث نبوي شريف ذكر لكتابية أهل اليمن في عصر الرسالة ، فقد ذكر الرواة أن الرسول الكريم أوصى معاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن ، مبتدئاً بالقول إنه سيُقدِم على قوم أهل كتاب[١٦].

الغاية من إيراد هذا ملاحظةُ أمرِ اليمن التي تذكر المدونة التراثية كيف أسلمت همدانها العصية في نهار واحد !!. فبلسان مختلف ، وبعربية ليست بعربيتنا ، تقبلت اليمن الإسلام ؛ وفهمت الدين ؛ وآمنت بكتاب ليس على لسانها ، وعلى يد رجال ليسوا منها ؛ وعربيتهم ليست بعربيتها. لم تحتج في ذلك إلى التراجمة ، ولم يتحدث إليها ناشرو الدين فيها بلغة غير لغتهم الحجازية ، التي تختلف كلية ، كما يزعمون ، عن لغة أهل اليمن !! . هكذا ، بنهار واحد ، ألغت اليمن تغايرها اللغوي والعرقي والحضاري والديني مع لغة الدين الوافد إليها وعرقه وحضارته . فهمت النصّ وآمنت بإعجازه وأدركت جمالياته وتذوقت بلاغته مع أنه يقول :﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾{البقرة /١٩ }ولغة اليمن المزعومة تقول : (يضعون شناترهم في صناراتهم)[١٧] . تجاهل اليمنيون أنهم يعرّفون بأداة التعريف (أم) والنصّ وحاملوه إليهم يعرّفون بـ(أل) ؛ وأهمل اليمنيون الاختلاف الصرفي والتركيبي والدلالي الشاسع بينهم وبين النصّ وآمنوا به ، ولولا فهمهم إياه ما آمنوا ؛ بل هم صاروا بعد إسلامهم بقليل ركيزة إيمانية في الدين كلّه فـ(الإيمان يمان ، والحكمة يمانية)[١٨] . ومع هذا كانت اليمن ، بعد أقل من سنة واحدة فقط من إسلامها ، مبدأ الردّة قبل وفاة الرسول الكريم لا بعدها .

في ما سبق ثمة ثلاثة مواطئ زلقة ، تتدافع حد أن تثير السؤال والبحث : أولها ؛ بأيٍّ نصدّق : بإسلام اليمن العجيب وإيمانها الذي لا يشبهه إيمان في سرعته ، أم بردّتها السريعة ؟. وثانيها ؛ بأيٍّ نتحدث : بلسان حمير المزعوم أم بلسان القرآن الذي آمنت به ؛ بل وأعلنت ردّتها ، حين ارتدّت ، على وفق نسقه اللغوي لا على وفق حميريتها اللسانية ؟. وثالثها ؛ بأيٍّ نأخذ : بنقوش اليمن وقرّائها أم بتأريخها منذ أسلمت ؟.

تذكر كتب التأريخ والسيرة أسماء رجال وفود اليمن في السنة العاشرة للهجرة ، وتذكر ردّة الأسود العنسي في السنة نفسها . وهي في الذكرين لا تورد لنا نصّاً يمانياً بلسان حمير ، ولا لفظاً من الألفاظ التي تذكرها المعاجم من ألفاظهم ، ولا تعطينا في تلك الحقبة صورة عن عربيتهم التي ليست بعربيتنا . بل إن الأبناء (بقايا الفرس الذين أعانوا اليمانيين على طرد الأحباش) ليس لهم من الفارسية إلاّ أسماؤهم ، كما تروي لنا أخبارهم وأحاديثهم في تلك الكتب . وليس الأمر ، كما يبدو من عاجل النظر ، أن مؤلفي تلك الكتب قد ترجموا لنا ما قيل باللسان الحميري إلى العربية ؛ فنحن أمام نصوص تتبع نسق الرواية والسند ، ولا سبيل إلى تغييرها ، إن وقعت فعلاً .

إن من العجيب أن تخلو كتب الحديث : صحيحه وضعيفه ، من إشارة إلى لسان حمير في كلام وفودها على الرسول الكريم ، وفي روايتها للحديث ، فليس لدينا إلاّ خبر واحد ، صار لندرته وغرابته موضع شاهد لغوي : ((ليس من ٱمبرُّ ٱمصيامُ في ٱمسفرِ))[١٩] أي : ((ليس من البر الصيام في السفر)) ؛ زاعمين أن الرسول الكريم أجاب به سؤال النمر بن تولب العكلي ، وعكل ليست من اليمن . ومن العجيب أيضاً أن لا يروي هذا الصحابي عن الرسول الكريم غير هذا الحديث[٢٠] . وأن لا تجد في أخباره وأشعاره المنثورة في الكتب أي علامة على لسانه الحميري تشبه هذه أو غيرها !!.... ترى عن أي لسان كان أبو عمرو بن العلاء يتحدث ؟ وعن أي عربية ؟ وفي أي زمن ؟ .

إن التراث اليماني المكتوب بعربيتنا يقول شيئاً . والتراث اليماني السابق على الإسلام كما تورده النقوش اليمانية المكتوبة بعربية غير عربيتنا ، على وفق قراءة القدماء والمحدثين لتلك النقوش ، يقول شيئاً آخر . والتاريخ الإسلامي لليمن يقول شيئاً ثالثاً غير السابقين .

فأما التراث اليماني المكتوب بعربيتنا فهو ما نجده في كتابي الهمداني : صفة جزيرة العرب ، والإكليل ، من إشارات إلى المسند اليماني ولغة أهل اليمن وألفاظها [٢١]. وهذه الإشارات تعطي كلمة أبي عمرو بن العلاء مصاديق صحة لا تشوبها شائبة ، ولكنها ، في الوقت نفسه ، تفتح باب سؤال : لِمَ لمْ يكتب أهل اليمن ، الواضح تعصبهم العرقي والإقليمي والتاريخي والحضاري ، بعربيتهم وبلسانهم ، الذي يبدو جلياً أنهم كانوا يجيدونه بدليل قراءتهم المسند القديم ؟ . ولِمَ اختفت ألفاظهم من الكتب الموجهة إلى جمهورهم اليماني – الذي كان ينطق بتلك اللغة بحسب ما نصّوه هم أنفسهم حتى القرن الرابع الهجري – فكانوا أكثر حرصاً على نقاء لسان العدنانيين وعربيتهم منهم على لسانهم وعربيتهم ؟.

وقبل أن يتعجل أحد بالإجابة أن الدين هو الذي حضّهم على ذلك ، فليقلّب كتاب الهمداني ، صفة جزيرة العرب[٢٢] ، وهو يضع خريطة لغوية لليمن في عصره (القرن الرابع الهجري) ؛ ليجد أن لسان اليمن ألسنة : منها الحميري الخالص ، ومنها الفصيح الخالص ، ومنها الغتمة الخالصة ، ومنها بين بين !!. وليسأل نفسه كيف كان الحميري الخالص يقرأ قرآنه ، ويؤدي صلاته ؟!.

وأما النقوش فأمرها ليس بالمتيسر في أن تكون حكماً في قضية كهذه ؛ فالرسم الخالي من الصوائت طويلها وقصيرها ، والمعجم المجهول تاريخياً والملتبس تحت كثرة المترادف المجهول أو المنسي ، وسطوة الدلالات القارّة ، يجعل من القراءة السليمة ، التي يبنى عليها حكم لغوي ، تبعاً للغة القارئ وثقافته وذخيرته اللغوية ؛ فكم من قارئ غربيّ ظنّ اللفظ غريباً وعدّه حميرياً خالصاً وهو في المعجم العدناني موجود [٢٣].

وأما تاريخ اليمن في الإسلام فليس في أخباره ونصوصه ما يدلك على لسان حمير وعربية أقاصي اليمن ، على الرغم من الدور المركزي الذي لعبته قبائل اليمن في أحداث ذلك التاريخ ، ويكفيك أن تنظر في أمر صفين ، مثلاً ، لتعرف أن عماد الجيشين المتحاربين ، ومحنة التحكيم ، ومبدأ خروج الخوارج ، إنما كان من اليمن !. وإن في أشعارهم الصحيحة الصدور عنهم بعد الإسلام ، بل من ساعة إعلانهم إسلامهم ، غياباً يكاد يكون تامّاً للسانهم الحميري ، على ظهور العصبية في تلك الأشعار ، وتفاقم الصراع التفاخري بينهم وبين العدنانيين[٢٤] .

من اللافت في هذا الباب أن هذا التنابز العرقي والمفاخرة الجاهلية هما اللذان أورثانا أول النصوص الدالة على عمق الاختلاف بين اللسانين ، لا بوصفه اختلافاً فحسب ؛ بل بوصفه حكم قيمة ، يشبه حكم القيمة الذي فضّل فصاحة قريش على غيرها من القبائل العدنانية والقحطانية في مجلس معاوية ؛ فالخبر المكرور في كتب الأدب عن مفاخرة بين اليمانية والعدنانية ، الذي وضع لنا قائمة صغيرة من ألفاظ حمير في معرض المقارنة مع ألفاظ القرآن الكريم ؛ لتكون عدنانية لسان القرآن مزية أخرى ، إلى جانب عدنانية الرسول وعدنانية الخليفة ، للعدنانية على اليمانية ؛ ذلك الخبر جرى ، بحسب الرواية ، في العصر العباسي في مجلس أبي العبّاس السفّاح[٢٥] ، الذي كان أخواله من اليمانية ؛ وليس لنا قبله من خبر أو قائمة كتلك القائمة ؛ ولا إشارة إلى استعمال ألفاظ القرآن الكريم في المفاخرة القبلية بين اليمن ومضر .

ومن العجب ، بعد هذا كلّه ، أن تنسب الكتب إلى الإمام علي عليه الصلاة والسلام أنه قال لكاتبه[٢٦] : ((ألصق روانفك بالجبوب ، وخذ المزبر بشناترك ، واجعل حندورتيك إلى قيهلي ، حتى لا أنغي نغية إلاّ أودعتها حماطة جلجلانك)) ، وتقول الكتب نفسها أن الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط سُئل عن معنى هذه الكلمة فقال في تفسيرها : ((الزق عضرطك بالصلة ، وخذ المصطر بأباخسك ، واجعل جحمتيك إلى أثعباني ؛ حتى لا أنبس نبسة إلاّ وعيتها في لمظة رباطك))[٢٧]. ومكمن العجب أن الألفاظ اليمانية المزعومة التي في نصّ الإمام ترجمها الفيروزآبادي إلى العدنانية ، وترجم العدنانية إلى اليمانية (شناترك = أباخسك ، وحندورتيك = جحمتيك) ، وحسبك هذا الخبر لتتأمل ؛ ولتسأل من بعدُ : ما بقي من حميرية هذه الألفاظ وهي تجري على ألسنة بلغاء العدنانيين ، على حين تختفي من ألسنة بلغاء حمير !!.

وفي تاريخ القراءات القرآنية المتكاثرة العريق ، ليس ثمة قراءة يمانية مخصوصة[٢٨] ، تجد فيها آثار الاختلاف اللساني اليماني ، ذلك الاختلاف الذي أباحته كتب القراءات والتراث القرائي لغير اليمن من لهجات العرب!. فعلى أي قراءة كان أهل اليمن (أهل الإيمان والحكمة) يقرؤون كتاب الله ، ويستنبطون أحكامه ؟.

ثمة نصّ غريب يرويه ياقوت في معجم البلدان (ولم أجده عند غيره لا في مصادره ولا في متابعيه ، لا كلاً ولا بعضاً ، على قدر ما فتشت ، إلاّ إشارةً في المحبّر[٢٩] لابن حبيب تختلف عما ذكره ياقوت) ، وهو يتحدث عن ستة ألسنة عربية تعاقبت في تاريخ العربية قديمها وحديثها ، في مكان واحد هو عَرَبَة ، وكلّها إنطاق إلهي لرجل وبنيه أو إخوته بالعربية على غير ألسنة آبائهم فهي إلهام متكرر في ست حقب ، ثلاث منها تكاد تكون واحدة مرتبطة بأبناء إبراهيم : مدين ويافش وإسماعيل ، ولا أدري أ إبراهيم هذا واحد أم ثلاثة ؛ وأنا مضطر إلى إيراد النصّ بتمامه ، على طوله النسبي ، لما فيه من إشارات ، ربما تفتح أبواب أسئلة شتى . يقول ياقوت : ((قال عمر بن محمد وأصحابه : أوّل من أنطقه الله في عَرَبَة ، بلسانٍ لم يكن قبلهم ، عوض وصول ابنا إرم وجرهم بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، عليه السلام ، ومن بعد البلبلة أنطقهم الله بالمسند ، فأهل المسند عاد وثمود والعماليق وجرهم وعبد بن الضخم وطسم وجديس وأميم ، فهم أوّل من تكلّم بالعربية بعد البلبلة ولسانهم المسند وكتابهم المسند ، قال هشام : قال أبي أوّل من تكلّم بالعربية يقطن بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، ويُقال : إن يقطن هو قحطان ، عُرِّبَ فسمّيَ قحطان ؛ ولذلك سُميّ ابنه يعرب بن قحطان لأنه أوّل من تكلّم بالعربية . واللسان الثاني ، ممن أنطقه الله في عَرَبَة بلسانٍ لم يكن قبلهم ، جُرهم بن فالج وبنوه ، أنطقهم الله بالزبور ، فهم الثاني ممن تكلّم بالعربية ولسانهم الزبور وكتابهم الزبور . واللسان الثالث ، ممن أنطقهم الله في عربة بلسان لم يكن قبلهم ، يقطن بن عامر وبنوه ، فأُنطِقوا بالزقزقة فهم الثالث ممن تكلّم بالعربية ولسانهم الزقزقة وكتابهم الزقزقة . واللسان الرابع ، ممن أنطقه الله في عربة بلسان لم يكن قبلهم ، مدين بن إبراهيم وبنوه ، فأُنطِقوا بالحويل ، فهم الرابع ممن تكلّم بالعربية ولسانهم الحويل وكتابهم الحويل . واللسان الخامس ، ممن أنطق الله في عربة بلسان لم يكن قبلهم ، يافش بن إبراهيم وإخوته ، فأُنطِقوا بالرشق ، فهم الخامس ممن تكلّم العربية ، ولسانهم الرشق وكتابهم الرشق . واللسان السادس ، ممن أنطقه الله في عربة بلسان لم يكن قبلهم ، إسماعيل بن إبراهيم ، فأُنطِقوا بالمبين ، وهو السادس ممن تكلّم بالعربية هو وبنوه ، ولسانهم المبين وكتابهم المبين ، وهو الغالب على العرب اليوم . فالمسند كلام حمير اليوم ، والزبور كلام بعض أهل اليمن وحضرموت ، والرشق كلام أهل عدن والجند ، والحويل كلام مهرة ، والزقزقة الأشعرون ، والمبين معد بن عدنان ، وهو الغالب على العرب كلّها اليوم .))[٣٠].

إن أوّل ما يلفت النظر في هذا النصّ حصّة أهل اليمن من الألسنة والكتب قياساً على حصة العدنانيين ؛ فمقابل خمسة ألسنة وخمسة كتب ليس لبني عدنان إلاّ لسان واحد وكتاب واحد . والأمر الآخر اللافت هو قدم الألسنة اليمانية وتأخر اللسان العدناني . والأمر الثالث هو أن الألسنة الستة كانت إلهامية جميعها ، وأنها إعلان مفارقة الناطق الأول بكلّ منها لبيئته اللغوية الأصل . والأمر الرابع هو أسماء الألسنة والكتب التي لا تجد لها مثلاً في الألسنة والكتب الأخرى ؛ وليس في المعجم العربي[٣١] من إشارة إلى أنها أسماء ألسنة ، ولا في التراث الديني أنها أسماء كتب (ما عدا الزبور وهو لداود عليه السلام وداود عبراني وليس يمانياً !!) ، وليس في تاريخ الخط العربي أسماء كتابات أو خطوط (إذا قلنا أن القصد من الكتاب الخطّ وليس الكتاب السماوي) كالتي في النصّ ما عدا المسند الذي جُعِلَ أقدم الألسنة والكتب . والأمر الخامس ، وهو عندي أهمها ، أن لهذه الألسنة وجوداً في عصر راوي الخبر ، أي بعد الإسلام بقرنين ، فهي موزعة على الخارطة الجغرافية والقبلية لليمن بطريقة غير مسبوقة : المسند لحمير ، والزبور لبعض أهل اليمن وحضرموت ، والزقزقة للأشعريين ، والرشق لأهل عدن والجند ، والحويل لمهرة . أما اللسان الغالب على العرب كلّهم فهو المبين الذي هو لمعد بن عدنان .

ربما يثير انفراد الخبر الشكّ فيه ، لاسيما غياب مضمونه ومصطلحاته (أسماء الألسنة والكتب) من المظانّ المهتمة بهذا الشأن ، ولكن ذكر ياقوت له مسنداً إلى راوٍ بعينه يضعنا أمام تساؤل مغرٍ : أكان هذا التسلسل في تاريخ العربية حقيقة واقعة ، أم هو حلّ ، فيه مزيج من العصبية والعقلنة ، لما يبدو من اختلاف في الإرث الديني واللغوي لليمن ؟. ولنلحظ في هذا الباب أن القرآن الكريم قد سمّى أنبياء ، يعدّهم القدماء من العرب ، ولكنه لم يذكر أسماء كتبهم ، فليس لدينا علم بمسمى الكتاب الذي خاطب به النبي صالح عليه السلام ثمود ، ولا علم بمسمى الكتاب الذي خاطب به النبي هود عليه السلام عاداً ، ولا علم بمسمى الكتاب الذي خاطب به النبي شعيب عليه السلام أهل مدين . فهل تكون هذه الأسماء ، الواردة في نصّ ياقوت ، أسماء كتب هؤلاء الأنبياء وألسنتهم ؟. إن في أسماء هذه الكتب والألسنة ما يمنع ذلك ، فما معنى أن يكون اسم الكتاب السماوي أو اللسان (الزقزقة) أو (الحويل) أو (الرشق) ؟. وما وجه إيراد الزبور ، الذي ينصّ القرآن الكريم على أنه كتاب داود عليه السلام ، في ضمن هذه الألسنة والكتب ؟.

لعلّ من المهم هنا إعادة النظر في قضية ذكرتها التواريخ القديمة من غير مناقشة أو استفسار : يهودية اليمن . فمن أين لليمن اليهودية ؟ وكم استمرت فيها ؟ وما آثارها ؟.

يقول أهل التراث[٣٢] أن يهودية اليمن جاءت عن طريق حبرين من يهود المدينة رافقا تبعاً بعد عودته إلى اليمن ، فعلى أيديهما صارت اليهودية دين تبّع نفسه ودين دولته . ويقول بعضهم أن اليهودية دخلت اليمن على يد ملكة سبأ بعد أن أسلمت لله على يد سليمان عليه السلام واتبعت ما جاء به من دين . وأيّاً ما يكن ذلك المبدأ فهم يقولون إن اليهودية استمرت حاكمة في الدولة اليمانية حتى نجم فيها قوم اتّبعوا المسيحية فحرّقهم الملك اليماني اليهودي في أخدود حفره لهم . ويقول أهل التفسير أن هؤلاء هم المعنيون بقصة أصحاب الأخدود الواردة في القرآن الكريم [٣٣]. وبسبب من هذا الاضطهاد طلبت بيزنطة من الحبشة المسيحية غزو اليمن لتخليص مسيحييها من الاضطهاد [٣٤]. وقد تم غزو اليمن على إثر ذلك ، ولكننا لا ندري أ تحولت كلها إلى المسيحية ، التي صارت دين الدولة الرسمي ، أم بقي أهلها على اليهودية أم عادوا إلى وثنيتهم ؟.

وقد انتهى الغزو الحبشي لليمن على يد الفرس الذين ساعدوا سيف بن ذي يزن على استعادة حكم اليمن ، ويبدو أن الحكم الفعلي كان فارسياً حتى عهد الرسالة ودخول اليمن في الإسلام ، وأن تدخّل فارس كان من باب الصراع على مناطق النفوذ بينها وبين بيزنطة لا من باب نصرة اليمانيين [٣٥].

إن ما يثير الحيرة في ما سبق هو طبيعة الدين اليهودي ، كما فهمه اليهود وشرعوا أعرافه ، فهو دين عرقي يعتمد صلة النسب في يهودية شخص ما ، فاليهودية ، كما تنصّ أعرافها ، ديانة وراثية وليست تبشيرية ، تخصّ الشعب المسمى مختاراً من أبناء إسرائيل ، وتسمي من سواهم من البشر (الأغيار) وهي تمنع اتصال اليهودي بهم إلاّ في حال الضرورة [٣٦].

ولعل هذا الأمر هو ما يفسر لنا الحيرة القديمة الحديثة في أمر يهود الجزيرة العربية ، بين قائل إنهم من أسباط بني إسرائيل الذين فروا من وجه نبوخذ نصر حين غزا مملكتهم ، وقائل إنهم جند أرسلهم موسى عليه السلام لقتال العماليق الذين كانوا يسكنون المدينة فاستقروا بعد وفاته فيها ؛ وقائل إنهم عرب تهوّدوا [٣٧]. فإذا كان هذا الأمر يخصّ يهود المدينة بفروعهم الثلاثة : بني قريضة وبني النظير وبني القينقاع ، الذين تنصّ كتب السيرة على أن طائفة منهم من نسل هارون أخي موسى عليهما السلام [٣٨]؛

فهم على هذا من الأسباط ؛ فما شأن يهود اليمن : أ هم مثلهم من الأسباط أم هم عرب تهوّدوا ، أم يهود تعرّبوا ؟ .

ربّما كانت الدراسة القيمة التي نشرها الدكتور كمال الصليبي حول التوراة وعلاقتها بجزيرة العرب[٣٩] ، وما لحقها على هدي منها[٤٠] ، ردّاً أو توكيداً أو إيغالاً في المبالغة ، تفتح أبواباً غاية في الأهمية والخطر ، تم التغافل عنها في ثقافة السلطة وإعلامها بدعاوى مضحكة [٤١]، ولم يُلحظ نسقها الكلي معروضاً على الإشارات القديمة والحديثة ، لتجلّي قولاً فصلاً في هذا الشأن ؛ ولكن الذي يعنيني هنا ، من دراسة الدكتور الصليبي وما تبعها ، هو الأثر اللغوي الغائب ليهودية أهل اليمن القديمة المؤكدة .

هل ترجم الحبران المزعومان التوراة إلى الحميرية ليتسنى تهويد اليمن في ضوئها أو كان اللسان عبرانياً أصالة ، إن كان مَن في اليمن مِن الأسباط الهاربين ، فلم يكن ثمة حاجة إلى الترجمة ؟.

أليس غريباً أن تشي أسماء الأمكنة ، والأشخاص أحياناً ، بالتطابق اللغوي[٤٢] مع بنية العبرية والتراث التوراتي ، ولا نجد دليلاً لغوياً على لسان يهود اليمن ، أو أثراً واجباً لليهودية في اللسان اليمني ؟. إن الأمر المتيقَن أن لكل دين أثراً لغوياً جلياً على ألسنة تابعيه مهما كان أصلهم اللغوي : مخالفاً أو موافقاً للسان الدين ؛ إن لم يكن في كل موضع ، ففي العبادات والشعائر والصلوات والمصطلحات التي لا بديل لها ولا ترجمة . فأين نجد هذا الأثر في اللسان اليماني المتهوّد تهوّداً رسمياً يستلزم فرض معطياته بقوة السلطة آخذين بعين الاعتبار طول المدة التي ظلت فيها اليهودية دين دولةٍ رسمياً في تلك البلاد ؟.

وإذا كان يهود المدينة قبل الهجرة وبعدها هم أعدى أعداء المسلمين فكراً وممارسة ، كما ينصّ القرآن الكريم على ذلك ، فكيف تُسلم اليمن في يوم واحد متجاهلة إرثها اليهودي ، ومتغافلة عن الشك الذي يمكن أن يبعثه في نفوس يهودها التشابهُ الكبير بين اليهودية والإسلام ، ذلك التشابه الذي كان مرتكز الشك اليهودي في المدينة في صحة نبوة النبي وأصالة الإسلام ، وكان مرتكز الشك المسيحي ، بعد الفتوحات في بيزنطة ، في أصالة الدين والرسول[٤٣] ، وكان مرتكز الشك الاستشراقي بعد ذلك بقرون كثيرة[٤٤] ؟ نعم ؛ إن القرآن ليدحض ذلك الشك تماماً بالجملة القرآنية ، التي لم يُعنَ بتدبرها المسلمون فضلاً عن مناوئيهم ، في قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب

ومهيمناً عليه ﴾ {المائدة /٤٨ }؛ ولكن يهود اليمن كانوا أقرب ، في وعيهم ومؤسستهم الكتابية وعصبيتهم ، إلى يهود المدينة منهم إلى مسلميها ؛ فكيف آمنوا بهذه السرعة العجيبة ؟ وأين لسانهم : الكتابي (العبرانية) أو العرقي (العربية) أو المتداول (الحميرية) ، من ذلك الإيمان ؟. إن أهل التراث يقولون إن ثمة مناطق في اليمن لسانها فارسي صرف ، وأخرى لسانها عربي صرف ، وأخرى لسانها حميري صرف ؛ وقد يبدو هذا مفهوماً ومتساوقاً مع تاريخ اليمن وتحولات السلطة فيها ، بين الأصل الحميري والأصل العربي الشمالي والغزو الحبشي والمعونة الفارسية على طرد الأحباش ؛ ولكننا لا نجد إشارة إلى أثر عبراني في اليمن ، وهذا غير مفهوم تماماً .

ويبدو من إشارات تراثية متفرقة أن اليهودية ظلت غالبةً في اليمن بعد نهاية الغزو الحبشي ، على حين انحسرت المسيحية ، التي عضدها الأحباش وجعلوها دين دولةٍ رسمياً ، لتستقر في نجران فحسب ؛ ويبدو كذلك أن ليهود اليمن أثراً بالغاً ، في ما يروي أهل التراث بغضّ النظر عن صحته من عدمها ، في تاريخ الإسلام السياسي والفكري ؛ ويكفيك من الشواهد أن تعلم أن كعب الأحبار من يهود اليمن ، وأن عبد الله بن سبأ ، المزعوم ، من يهود اليمن ، وأن وهباً بن منبه من يهود اليمن . ولنا أن نعدّ غيرهم ، ممن كانوا على اليهودية وأسلموا أو ظلوا على يهوديتهم ، فكأنّا نعدّ اليمن معظمها أو كلّها . ولنا أن نعجب من تكرار الحديث في تراثنا عن أحبار اليمن الذي عرفوا بنبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم من تجار مكّة ، فاستفسروا من بعض قريش عنه وعن صفاته [٤٥]، وعن أحبار كانوا فيها بعد انتشار الإسلام يسألون الإمام علياً عليه الصلاة والسلام عن صفة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم [٤٦]؛ كلّ هذا ولا تجد أثراً للسان التوراة : لفظاً أو معنىً ، في كلام أهل اليمن المتدينين بها ؛ على حين تجد أثراً بيّناً لمعاني التوراة وشيئاً من ألفاظها عند بعض ثقيف ، كالذي يزخر به شعر أميّة بن أبي الصلت الثقفي الصحيح فضلاً عن المنحول . أ ليس هذا غريباً ، وأكاد أقول مريباً ؟.

كيف استطاعت الحميرية المزعومة ، مقاومة الآثار اللغوية العبرية والحبشية والفارسية المعززة بالدين والسلطة وقوة القسر ، في زمن يتجاوز القرون ، فلم يعرض لها من التغيير والتبديل شيء يذكر ، ثمّ اختفت فجأة أمام لسان القرآن وديانته ، في ظرف سنة واحدة ، إن لم نصدّق بأمر اليوم الواحد ؟. يقول أحد القدماء أن أمراً إلهياً قد وحّد ألسنة أهل الجزيرة : يمنها ومضرها ، قبل الإسلام تهيئةً لمجيء الإسلام [٤٧]. وقد يصحّ هذا القول في تفسير الوحدة اللسانية الملحوظة والتي عدّها المحدثون لغة أدبية

مشتركة ، ليحلّوا مشكلة التعدد اللهجي والاتفاق اللساني الملحوظين في آثار ذلك العصر وأخباره ؛ ولكن القول المذكور لا يفسّر التقبّل اليماني العجيب للدين ، في ضوء وجود أديان حاكمة قبله في الوعي والاعتقاد . يدلّك على ذلك بقاء يهود المدينة يهوداً مع إسلام الأنصار ، وبقاء أهل نجران نصارى مع إسلام محيطهم الجغرافي ، وجدل الطرفين مع الإسلام فكراً أو قتالاً ؛ فما بال يهودية اليمن لا تجادل بأحدهما أو كليهما ؟ أم تراها جادلت وأغفلت التواريخ جدالها ؟ أ لا يدلّك إجلاء يهود اليمن ، في ضمن نصارى الجزيرة ويهودها من الجزيرة في عهد عمر بن الخطاب ، على شيء من هذا ؟ . وفي هذا المرَج العجيب أين كان لسان حمير ؟ وكيف كانت عربيتهم ؟ وما بالهما عادا ، بعد اختفائهما المفاجئ إبّان انتشار الإسلام في اليمن ، لتكون لهما آثار بيّنة في عصر أبي عمر بن العلاء (القرن الثاني الهجري) ، وفي عصر المقدسي والهمداني (القرن الرابع الهجري) ؟

أغلب الظنّ أن الحميرية كانت بقايا أثرية في منطقة بعينها من مناطق اليمن ، وأنها اختفت قبل الإسلام بمدة ، ربما تكون طويلة ، من اليمن كلّها ؛ لأسباب ليس أقلّها اختفاء الملك الحميري نفسه ، وتشتت اللسان في ضوء التغاير الديني وتعدد الغزاة ، فضلاً عن انهيار الحضارة اليمانية وبزوغ المدّ الشمالي العدناني ؛ ولأن حقيقة الاختلاف بين اللسانين عند التدقيق ليست كما يزعمها القوم بل هي أنزر وأقل من أن تجعلهما لسانين مستقلين ؛ فالنقوش الحميرية ، لو أُحسِنتْ قراءتها ، عربية صرفة ، لا يبعث على الشعور بتغايرها عن العربية إلاّ الوسم اللهجي القليل ، ومشاكل الرسم ، وعجز القارئ الغربي – الذي كان قارئها الأول ما فرض نمط قراءته على من تلاه – عن تدبّر المعجم . إن أغرب ما في تلك النقوش أسماء الأماكن والأعلام والقبائل ، أمّا ما سواه فله في المعجم العدناني أشقاء صرحاء ، غيّبهم استقرار الدلالة والتداول والشيوع ، حتى ظنّهم الظانّ ليسوا من عربية العدنانيين في شيء . ولعل هذا الأمر وحده هو الذي يجعل إسلام اليمن ، بالطريقة التي ذكرها أهل التراث ، معقولاً .

ما يتبقى بعد هذا من كلمة أبي عمرو بن العلاء ؛ وما بُني عليها ؟. أظنّ الأمر لا يخلو من تعميم ، ثمّة مشابِهَ له في التراث ، جعل من وصف قرية من قرى صنعاء وصفاً لحمير كلها وأقاصي اليمن ؛ ومن الطريف أن ياقوت يقول إن أهل صنعاء أنفسهم إذا أرادوا وصف أهل تلك القرية وصفوهم بالغتمة ، التي توازي العجمة في عدم البيان ، فقالوا أغتام صنعاء .

والحقّ الذي يبيّنه إسلام اليمن وشعرها وأخبارها في صدر الإسلام وبعده إن لسان حمير المزعوم وعربيته المختلفة قد بادا إلاّ قليلاً ؛ ولولا بقايا نقوش مسندية ، لا يُنتَظر منها حكماً فصلاً ، لما كان لنا من دليل على وجود ذلك البائد ، إلاّ في قرية صغيرة ، حافظت عليه ، تشبه في حالها هذه منطقة (معلولا) السورية التي ظلّت تنطق الآرامية ، منذ عهد المسيحية الأوّل إلى يومنا هذا ، في محيط تعرّب كلّيّةً : لغةً وفكراً ، منذ أربعة عشر قرناً .

المصادر والمراجع

١-القرآن الكريم

٢-أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية ، د. رشيد العبيدي ، مطبعة التعليم العالي ، بغداد ، ١٩٨٨ .

٣-أحسن التقاسيم ، المقدسي ، دار صادر ، بيروت ، د.ت.

٤-الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر ، بيروت ، ط٣، ٢٠٠٨.

٥-الإكليل ، الهمداني ، ج٨ تحقيق نبيه أمين فارس ، دار العودة بيروت ودار الكلمة صنعاء ،د.ت.

٦-أنساب الأشراف ، البلاذري ، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي ، دار الفكر ، لبنان، ١٩٩٦.

٧-الإيناس في علم الأنساب ، الوزير المغربي ، تحقيق حمد الجاسر ، دار اليمامة ، ط١، الرياض ، ١٩٨٠.

٨-البداية والنهاية ، ابن كثير ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ، مصر ، ١٩٩٩.

٩-بغية الوعاة ، السيوطي ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢، ١٩٧٩.

١٠-تاريخ الطبري ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ط٢، ١٩٦٧.

١١-تاريخ القرآن ، نولدكه ، ترجمة جورج تامر ، مؤسسة كونراد-ادناور ، ط١، بيروت ، ٢٠٠٤.

١٢-التذكرة الحمدونية ، ابن حمدون ، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٦.

١٣-تراث الإسلام ، تحرير شاخت وبوزورث ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ط٢، ١٩٨٨.

١٤-تفسير ابن كثير ، تحقيق مصطفى السيد محمد وزملاؤه ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة ، د.ت.

١٥-التوراة جاءت من جزيرة العرب ، كمال الصليبي ، ترجمة عفيف الرزاز ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ط٣، ١٩٨٦.

١٦-الجليس الصالح الكافي ، المعافى بن زكريا ، تحقيق مرسي الخولي ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٩٣.

١٧-الزينة في معاني الكلمات الإسلامية العربية ، أبو حاتم الرازي ، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني ، القاهرة ،١٩٥٧.

١٨-السيرة النبوية ، ابن هشام ، تحقيق السقا والابياري وشلبي ، دار الوفاق ، بيروت ، د.ت.

١٩-شمس العلوم ، نشوان الحميري ، تحقيق العمري والارياني وبن عبد الله ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٩.

٢٠-الصاحبي ، ابن فارس ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧.

٢١-صحيح البخاري ، البخاري ، دار ومطابع الشعب ، القاهرة ، د.ت.

٢٢-صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د.ت.

٢٣-صفة جزيرة العرب ، الهمداني ، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ، مكتبة الإرشاد ، ط١، صنعاء ، ١٩٩٠.

٢٤-طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، د.ت.
٢٥-طبقات النحويين واللغويين ، أبو بكر الزبيدي ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط٢ ، القاهرة ،د.ت.
٢٦-علم القراءات في اليمن ، عبد الله المنصوري ، منشورات جامعة صنعاء ، صنعاء ، ٢٠٠٤.
٢٧-الفكر الديني القديم ، تقي الدباغ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٢.
٢٨-في الأدب الجاهلي ، د. طه حسين ، دار المعارف ، ط٤، القاهرة ، ١٩٤٧.
٢٩-الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧.
٣٠-كنز الدرر ، الدواداري ، تحقيق محمد السعيد جمال الدين ، منشورات المعهد الألماني للآثار ، القاهرة، ١٩٨١.
٣١-لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، د.ت.
٣٢-محاضرات في تاريخ العرب ، صالح احمد العلي ، دار الكتب ، جامعة الموصل ، الموصل ، د.ت.
٣٣-المحبر ، ابن حبيب ، تحقيق ايلزه ليختن شتيتر ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، د.ت.
٣٤-مختصر تاريخ دمشق ، ابن منظور ، تحقيق سكينة الشهابي ، دار الفكر ، ط١، دمشق ، ١٩٨٩.
٣٥-مروج الذهب ، المسعودي ، تحقيق يوسف البقاعي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت.
٣٦-المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، تحقيق البجاوي وجاد المولى وإبراهيم ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، د.ت.
٣٧-مسند أحمد ، أحمد بن حنبل ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، ط١، القاهرة ، ١٩٩٥.
٣٨-معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧.
٣٩-معجم القراءات القرآنية ، أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم ، مطبوعات جامعة الكويت ، ط٢، الكويت ، ١٩٨٨.
٤٠-مغني اللبيب ، ابن هشام الأنصاري ، تحقيق المبارك وحمد الله ،دار الفكر ، ط٦، بيروت ، ١٩٨٥.
٤١-المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د.جواد علي ، دار انتشارات الشريف الرضي ، قم ، د.ت.
المفصل في صنعة الإعراب ، الزمخشري ، تحقيق اميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت ، ١٩٩٩.
٤٢-من هو اليهودي ، عبد الوهاب المسيري ، دار الشروق ، ط٢ ، القاهرة ، ٢٠٠١.

Abstract

Despite of the famous saying of Ibi-Omero bin-Aala'a concerning the differences of our tongue and that Of hammier, farthest Yamen and our Arabic from theirs and despite of what's built on its ideas and opinions, the need is for re-reading in the lights of its contrast with linguistic and historical events that made it on an argument for intended absence of questions more than its being as an answer for a linguistic fact.

This research is an attempt to re-read this saying and its implications in the light of the historical, linguistic and Qur'anic outcomes. These might manipulate in enlightening the aim of Ibi-Omero bin-Aala'a as well as uncovering the generalizations that this saying forms on the linguistic differences between the makers of the two Islands. After the research ,it is stated that this judgement is not absolute and not a linguistic reality neither in the age of its saying ,before it nor after it. The historical and linguistic events made it a separate description which can't generalize it on Hammier and furthest Yamen.

الهوامش

[١] في الأدب الجاهلي : ٨٩، وقد اعتمد في إيراد النصّ على طبعة ليدن من طبقات الشعراء لابن سلام .

[٢] طبقات فحول الشعراء :١١/١ .

[٣] المزهر :١٧٤/١.

[٤] ثمة إشارة إلى أن حمير بن الغوث ، وهو متأخر عن حمير بن سبأ الأكبر وحمير بن سبأ الأصغر ، هو الذي بدأت به الحميرية اللسانية وأن من قبله كانوا فصحاء ، ينظر : معجم البلدان :٣٠٧/٢.

[٥] لسان العرب ٣٨٦/١٣.

[٦] ثمة إشارة إلى أن أبا عمرو هو من أطلق هذا الاسم على دراسة اللغة والنحو فقد ذكر الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين : ٣٩ ، الخبر التالي : ((قال ابن نوفل : سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء : أخبرني عما وضعتَ مما سمّيتَهُ عربية : أيدخل فيه كلام العرب .....)) .

[٧] ينظر مثلاً : فهرس الألفاظ اليمانية في فهارس شمس العلوم لنشوان الحميري :١٢/ ٨٨٥-٨٨٧.

[٨] أشهرها حكاية (من ظفّر حمّر) أي من دخل ظفار تكلّم الحميرية ، ينظر تفصيلها في الصاحبي : ٣١-٣٢.

[٩] ينظر تفاصيل النظم الحضارية في اليمن ، في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ٢/ ٧٣-٦٠٠.

[١٠] انفرد وهب بن منبه و ابن الكلبي ، في ما نقله عنهما الوزير المغربي ، بقول ، لم يشع في ضوء العصبية ، مفاده أن القحطانيين الأولين : قحطان بن عابر ، هم العرب العاربة ، وقد بادوا ، ولا وجود لهم ولا نسل ؛ وأن قحطان الذي تعتزي إليه قبائل اليمن وتفتخر به هو من نسل نابت بن إسماعيل ، فالعرب ،كلّهم يمنهم ومضرهم ، على وفق هذا ، هم أبناء إسماعيل . وربما يفسر هذا الأمر ، إن صحّ ، الوحدة اللسانية التي حار العلماء في تفسيرها . ينظر : الإيناس بعلم الأنساب ، الوزير المغربي :٢٧٥-٢٧٦ .

[١١] الفكر الديني القديم : ١٢٤-١٢٧.

[١٢] تنظر التفاصيل في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ١/ ٣٨١-٤١١.

[١٣] محاضرات في تاريخ العرب :٢٩.

[١٤] الكامل في التاريخ :١٦٨/٢.

[١٥] تاريخ الطبري : ١٤٧/٣. وفي صدق مفهوم الردّة على طائفة من القبائل التي امتنعت عن أداء الزكاة نظر قديم ، أشار إلى طرف منه مسند أحمد : ٢١٦/١، في الخلاف بين أبي بكر وعمر في أمر قتال المانعين .

[١٦] صحيح البخاري : ٢٠٦/٥.

[١٧] أنساب الأشراف : ٢٩٥/١٢، والصاحبي : ٣٨.

[١٨] صحيح مسلم :١/٥٠-٥١.

[١٩] مغني اللبيب :٧١.

[٢٠] المفصل في صنعة الإعراب : ٤٨٣. ويلحظ في هذا الشأن الرواية التي ذكرها صاحب الأغاني : ١٩٢/٢٢ ، في أخبار النمر بن تولب عن صحيفة كان يحملها النمر في جرابه وعن حديث نبوي سمعه ، وهو عن الصوم أيضاً : ((صوم شهر الصبر وصوم ثلاثة أيام من كل شهر يُذهبن كثيراً من وحر الصدر)) ، وهو يختلف معنىً ولغة عن الحديث المزعوم . ويمكن القول إن الحديث الذي فيه سمة الحميرية اللغوية موضوع ، بدليل معناه قبل لفظه ، وبدليل الحديث الآخر الذي رواه النمر بن تولب ، فهو في الصوم المندوب لا في صوم الفريضة فحسب .

[٢١] ينظر صفة جزيرة العرب : ٢٤٨، والإكليل : ٨/ ١٢٢. وقد خصص الهمداني الجزء التاسع من الإكليل للسان حمير ، ولكنه ضاع فلم يصل إلينا .

[٢٢] صفة جزيرة العرب : ٢٤٨، وينظر ما ذكره المقدسي في أحسن التقاسيم : ٩٦-٩٧، في شأن لغة أهل اليمن في القرن الرابع الهجري ، فقد أفرد قرية غربيّ صنعاء اسمها حمير أو الحميري بالحميرية التي لا تُفهم ، على حين قال بعربية عدنانية فيها خليط لهجات في بقية اليمن وثمة مواضع قال إن لغتها فارسية . وليـاقوت في معجم البلدان :٣٠٧/٢ ، قول قريب من قول المقدسي .

[٢٣] ينظر شيء من هذا في قراءة الدكتور رشيد العبيدي لنقش يماني قديم قرأه قبله ولفنسون وليتمان ، في كتابه أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية : ١٣٥.

[٢٤] للتأمل في هذا تنظر ، مثلاً ، أخبار يزيد بن مفرغ الحميري في الأغاني ، تحقيق إحسان عباس :١٨/ ١٨٦- ٢١٨ فلدينا نصوص تدل على معرفته الفارسية واستعماله لها ، وليس لدينا في شعره ، الطافح بالعصبية القحطانية ، أي إشارة إلى ألفاظ حميرية !!.

[٢٥] ينظر : أنساب الأشراف :١٢/٢٩٤-٢٩٥ ، والجليس الصالح الكافي : ٣/٤٢-٤٤، والتذكرة الحمدونية : ٣/٤١١-٤١٣ ، ومختصر تاريخ دمشق :٣/١١٢-١١٣ . وثمة إشارة موحية لابن فارس في الصاحبي : ٣٨-٣٩، حول دقة هذا الخبر ، وأنه من صنائع العصبية .

[٢٦] المعروف أن كاتب الإمام ، أيام خلافته كلّها ، هو عبيد الله بن أبي رافع وهو من الموالي ؛ وليس يمانياً ؛ ينظر : كنز الدرر : ٣/١٤١؛ فلا أدري كيف خاطبه الإمام بألفاظ يمانية ، هذا إن صدقنا أن الإمام نطق بهذه الألفاظ . ولا أدري كيف يكون المعلم القرآني الناصح متحدثاً إلى تلميذه بهذه اللغة المتقعرة وهو يرجو له الفهم والالتزام بالنصيحة ، ولقد كان يسيراً أن يقول : أقعد ؛ وخذ القلم بأصابعك ؛ واجعل عينيك إلى وجهي حتى لا ألفظ لفظة إلاّ جعلتها في حبّة قلبك .

[٢٧] بغية الوعاة :٢٧٤/١.

[٢٨] يذكر المقدسي في أحسن التقاسيم : ٩٧، أن قراءة عاصم هي السائدة في اليمن في زمان تأليفه كتابه ، وأن قراءة أبي عمرو موجودة فيه أيضاً . ولا إشارة إلى قراءة يمانية مخصوصة فيها آثار الاختلاف اللساني . بل ليس ثمة من قارئ يماني إلاّ قارئاً بقراءة نافع هو أبو قرّة اليماني ، وآخر يقرأ بالشواذ اسمه محمد بن السميفع أصله من اليمن وسكن البصرة ، ينظر : علم القراءات في اليمن ، عبد الله المنصوري ، إصدارات جامعة صنعاء ، ٢٠٠٤: ٢٣٣-٢٨٠ ، ومعجم القراءات القرآنية ، أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم ، منشورات جامعة الكويت ، ط٢، ١٩٨٨: ١١٨/١.

[٢٩] ينظر قبائل العاربة الذين أُلهِموا العربية فتكلّموا بها في المحبر لابن حبيب : ٣٩٥.

[٣٠] معجم البلدان : ٩٧/٤-٩٨ .

[٣١] ينظر لسان العرب في مواد : سند ، وزبر ، وحول ، وزقزق ، ورشق ، وبين .

[٣٢] ينظر في روايات تهود اليمن : مروج الذهب : ٣٠٦/٢، والبداية والنهاية : ١٢٤/٣.

[٣٣] ينظر تفسير ابن كثير : ٣١٠/١٤.

[٣٤] مروج الذهب :٣٠٦/٢ ، وتفسير ابن كثير :١٤/ ٣١٠ ..

[٣٥] مروج الذهب : ٢/ ٣٠٨-٣٠٩.

[٣٦] من هو اليهودي ، عبد الوهاب المسيري :٣١.

[٣٧] ينظر الأغاني : ١٠٧/٢٢-١٠٩.

[٣٨] السيرة النبوية لابن هشام : ٢٠٢/٢.

[٣٩] ينظر التوراة جاءت من جزيرة العرب ،كمال الصليبي ، ترجمة عفيف الرزاز ، ط٣، مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت ١٩٨٦.

[٤٠] ينظر مثلاً : الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم لفراس السواح ، وجغرافية التوراة مصر وبني اسرائيل في عسير لزياد منى ، وغيرهما .

[٤١] تنظر مقدمة التوراة جاءت من جزيرة العرب :٧-١٠ .

[٤٢] ينظر التوراة جاءت من جزيرة العرب : ٨٥ وما بعدها .

[٤٣] ينظر : الفصل الذي كتبه مكسيم رودنسون في تراث الإسلام ، تحرير :شاخت وبوزورث : ١/ ٢٧-١٠٠.

[٤٤] ينظر مثلاً ، لا حصراً ، تاريخ القرآن لنولدكه فهو قد بني كلية على هذه الرؤية .

[٤٥] البداية والنهاية : ٣/ ٥٢٦.

[٤٦] البداية والنهاية : ٨/٣٩٨-٣٩٩.

[٤٧] ينظر الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ، أبو حاتم الرازي : ١/٥٦.